الباب الثامن والثلاثون

فى ذكر آداب الصلاة وأسرارها

أحسن آداب المصلّى : أن لا يكون مشغول القلب بشىء قَلَ أو كثر ؛ لأن الأكياس لم يرفضوا الدنيا إلا ليقيموا الصلاة كما أمروا؛ لأن الدنيا وأشغالها لمّا كانت شاغلة للقلب رفضوها غيّرة على محل المناجاة ، ورغبة فى أوطان القربات ، وإذعانًا بالباطن لربّ البريّات ؛ لأن حضور الصلاة بالظاهر إذعان الظاهر : (وفراغ القلب فى الصلاة عمّا سوى الله تعالى إذعان الباطن) فلم يروا حضور الظاهر وتخلّف الباطن حتى لا يختل إذعانهم فتنخرم عبوديتهم فيجتنب أن يكون باطنه مرتهنا بشىء ، ويدخل الصلاة .

وقيل : من فقه الرجل أن يبدأ بقضاء حاجته قبل الصلاة ، ولهذا ورد : (إذا حضر العَشاء والعِشاء فقدموا العَشاء على العِشاء) .

ولا يصلى وهو (حاقن) يطالبه البول ، ولا (حازق) يطالبه الغائط . والحزق أيضًا : ضيق الخفّ .

ولا يصلى أيضًا وخفه ضيّق يشغل قلبه ؛ فقد قيل : (لا رأى لحاذق) قيل : الذى يكون معه ضيق .

وفى الجملة ليس من الأدب أن يصلّى وعنده ما يغير مزاج باطنه عن الاعتدال كهذه الأشياء التى ذكرناها .

والاهتمام المفرط ، والغضب ، وفى الخبر : (لا يدخل أحدكم فى الصلاة وهو مقطّب ، ولا يصلينّ أحدكم وهو غضبان) .

فلا ينبغى للعبد أن يتلبّس بالصلاة إلا وهو على أتمّ الهيئات ، وأحسن لبسة المصلّى سكون الأطراف وعدم الالتفات ، والإطراق ، ووضع اليمين على الشمال ، فما أحسنها من هيئة عبد ذليل واقف بين يدى ملك عزيز ، وفى رخصة الشرع دون الثلاث حركات متواليات جائز ، وأرباب العزيمة يتركون الحركة فى الصلاة جملة : وقد حرّكت يدى فى الصلاة وعندى شخص من الصالحين ، فلما انصرفت من الصلاة أنكر علىّ وقال : عندنا أن العبد إذا وقف فى الصلاة ينبغى أن يبقى جمادًا مجمدًا ، لا يتحرك منه شىء وقد جاء فى الخبر :

(سبعة أشياء فى الصلاة من الشيطان : الرعاف ، والنعاس ، والوسوسة ، والتثاؤب ، والحكاك ،والالتفات ، والعب بالشيء من الشيطان أيضًا) . وقيل : السهو والشك .

وقد روى عن عبد الله بن عباس ، رضى الله عنهما ، أنه قال : إن الخشوع فى الصلاة : أن لا يعرف المصلى مَن على يمينه وشماله .

ونقل عن سفيان أنه قال : من لم يخشع فسدت صلاته .

وروى عن معاذ بن جبل ، أشدّ من ذلك ، قال : من عرف من على يمينه وشماله فى الصلاة متعمدًا فلا صلاة له .

وقال بعض العلماء : من قرأ كلمة مكتوبة فى حائط أو بساط فى صلاته فصلاته باطلة .

قال بعضهم : لأن ذلك عدّده عملاً .

وقيل فى تفسير قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ دَائِمُونَ﴾[1] قيل: هو سكون الأطراف والطمأنينة .

قال بعضهم : إذا كبّرت التكبيرة الأولى فاعلم أن الله ناظر إلى شخصك عالم بما فى ضميرك .

ومثّل فى صلاتك الجنة عن يمينك والنار عن شمالك .

وإنما ذكرنا أن تمثّل الجنة والنار ؛ لأن القلب إذا شغل بذكر الآخرة ينقطع عنه الوسواس .

فيكون هذا التمثيل تداويًا للقلب ، لدفع الوسوسة .

أخبرنا شيخنا ضياء الدين السهروردى ، إجازة ، قال : أخبرنا عمرو بن أحمد الصفار ، قال : أخبرنا أبو بكر بن خلف قال : أخبرنا أبو عبد الرحمن قال : سمعت أبا الحسين الفارسى يقول : سمعت محمد بن الحسين يقول : قال سهل : من خلا قلبه عن ذكر الآخرة تعرّض لوساوس الشيطان . فأما من باشر باطنه صفو اليقين ونور المعرفة فيستغنى بشاهده عن تمثيل مشاهده .

قال أبو سعيد الخرّاز : (إذا ركع فالأدب فى ركوعه أن ينتصب ، ويدنو ويتدلى فى ركوعه حتى لا يبقى منع مفصل إلا وهو منتصب نحو العرش العظيم ، ثم يعظم الله تعالى حتى لا يكون فى قلبه شيء أعظم من الله . ويصغر فى نفسه حتى يكون أقل من الهباء . وإذا رفع رأسه وحمد الله يعلم أنه سبحانه وتعالى يسمع ذلك) .

---

(١) آية رقم ٢٣ من سورة المعارج .

وقال أيضًا : ويكون معه من الخشية ما يكاد يذوب به .

قال السراج : إذا أخذ العبد فى التلاوة فالأدب فى ذلك أن يشاهد ويسمع قلبه كأنه يسمع من الله تعالى .

أو كأنه يقرأ على الله تعالى .

وقال السراج أيضًا : من أدبهم قبل الصلاة المراقبة ومراعاة القلب من الخواطر والعوارض ، ونفى كل شىء غير الله تعالى .

فإذا قاموا إلى الصلاة بحضور القلب ، فكأنهم قاموا من الصلاة إلى الصلاة . فيبكون مع النفس والعقل اللذين دخلوا فى الصلاة بهما ، فإذا خرجوا من الصلاة رجعوا إلى حالهم من حضور القلب . فكأنهم أبدًا فى الصلاة . فهذا هو أدب الصلاة .

وقيل : كان بعضهم لا يتهيّأ له حفظ العدد من كمال استغراقه .

وكان يُجْلس واحدًا من أصحابه يعدد عليه كم ركعة صلّى .

وقيل : للصلاة أربع شعب : حضور القلب فى المحراب ، وشهود العقل عند الملك الوهاب ، وخشوع القلب بلا ارتياب ، وخضوع الأركان بلا ارتقاب ، لأن عند حضور القلب رفع الحجاب ، وعند شهود العقل رفع العتاب ، وعند حضور النفس فَتح الأبواب ، وعند خضوع الأركان وجود الثواب .

فمن أتى الصلاة بلا حضور القلب ، فهو مُصل لاهٍ ، ومن أتاها بلا شهود العقل فهو مُصل ساهٍ ومن أتاها بلا خضوع النفس فهو مصل خاطىء ، ومن أتاها بلا خشوع الأركان فهو مصل جافٍ ، ومن أتاها كما وُصف فهو مصل واف .

وقد ورد عن رسول الله ﷺ : (إذا قام العبد إلى الصلاة المكتوبة مقبلاً على الله بقلبه وسمعه وبصره انصرف من صلاته وقد خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه ، وإن الله ليغفر بغسل الوجه خطيئة أصباها وبغسل رجليه خطيئة أصابها حتى يدخل فى صلاته وليس عليه وزر)[1] .

وذكرت السرقة عند رسول الله ﷺ ،فقال : (أىّ السرقة أقبح) ؟ فقالوا : الله ورسوله أعلم فقال : (إن أقبح السرقة أن يسرق الرجل من صلاته) ، قالوا : كيف يسرق الرجل من صلاته ؟ قال : (لا يتم ركوعها ولا سجودها ولاخشوعها ولا القراءة فيها) .

---

(١) متفق عليه .

وروى عن أبى عمرو بن العلاء أنه قُدّم للإمامة فقال : لا أصلح ، فلمّا ألحوّا عليه كبر فغشى عليه ، فقدّموا إمامًا آخر ، فلما أفاق سئل فقال : لّما قلت استووا هتف بى هاتف : هل استويت أنت مع الله قط ! !

وقال عليه الصلاة والسلام : (إن العبد إذا أحسن الوضوء وصلّى الصلاة لوقتها وحافظ على ركوعها وسجودها ومواقيتها قالت : حفظك الله كما حفظتنى ، ثم صعدت ولها نور حتى تنتهى إلى السماء وحتى تصل إلى الله فتشفع لصاحبها ، وإذا أضاعها قالت : ضيّعك الله كما ضيعتنى ثم صعدت ولها ظلمة حتى تنتهى إلى أبواب السماء فتغلق دونها ، ثم تلف كما يلف الثوب الخلق فيضرب بها وجه صاحبها)[١] .

وقال أبو سليمان الدارانى : إذا وقف العبد فى الصلاة يقول الله تعالى : ارفعوا الحجب فيما بينى وبين عبدى فإذا التفتّ يقول الله : ارخوها فيما بينى وبينه وخلّوا عبدى وما اختار لنفسه .

وقال أبو بكر الورّاق : ربّما أصلى ركعتين فأنصرف منهما وأنا أستحيى من الله حياء رجل انصرف من الزنا ! !

قوله هذا لعظيم الأدب عنده ومعرفة كل إنسان بأدب الصلاة على قدر حظّه من القرب .

وقيل لموسى بن جعفر : إن الناس أفسدوا عليك الصلاة بمرورهم بين يديك . قال : إن الذى أصلّى له أقرب إلىّ من الذى يمشى بين يدى .

وقيل : كان زين العابدين علىّ بن الحسين رضى الله عنهما إذا أراد أن يخرج إلى الصلاة لا يُعرف من تغيّر لونه . فيقال له فى ذلك فيقول : أتدرون بين يدىَ مَن أريد أن أقف ؟

وروى عمّار بن ياسر عن رسول الله ﷺ أنه قال : (لا يكتب للعبد من صلاته إلا ما يفعل)[٢] .

وقد ورد فى لفظ آخر : (منكم من يصلى الصلاة كاملة ، ومنكم من يصلى النصف والثلث والربع والخمس حتى يبلغ العشر)[٣] .

---

(١) متفق عليه .
(٢) متفق عليه .
(٣) رواه ابن ماجه .

قال الخوّاص : ينبغى للرجل أن ينزى نوافله لنقصان فرائضه ، فإن لم ينوها لم يحسب له منها شيء .

بلغنا أن الله لا يقبل نافلة حتى تؤدى فريضة ، يقول الله تعالة مثلكم كمثل العبد السوء بدأ بالهدّية قبل قضاء الدين. وقال أيضًا: انقطع الخلق عن الله تعالى بخصلتين: إحداهما أنهم طلبوا النوافل وضيعوا الفرائض، والثانية: أنهم عملوا أعمالاً بالظواهر ولم يأخذوا أنفسهم بالصدق فيها والنصح لها، وأبى الله أن يقبل من عامل عملاً إلاّ بالصدق وإصابة الحق .

وفتح العين فى الصلاة أولى من تغميض العين ، إلاّ أن يتشتت همه بتفريق النظر فيغمض العين للاستعانة على الخشوع .

وإن تثاءب فى الصلاة يضم شفتيه بقدر الإمكان ، ولا يلزق ذقنه بصدره ، ولا يزاحم فى الصلاة غيره ، قيل : ذهب المزحوم بصلاة المزاحم .

وقيل : من يترك الصف الأول مخافة أن يضيّق على أهله فقام فى الثانى أعطاه الله مثل ثواب الصف الأول من غير أن ينقص من أجورهم شيئًا .

وقيل : إن إبراهيم الخليل عليه السلام كان إذا قام إلى الصلاة يسمع خفقان قلبه من ميل .

وروت عائشة ، رضى الله تعالى عنها ، أن رسول الله ﷺ كان يسمع فى صدره أزيز كأزيز المرجل ، حتى كان يسمع فى بعض سكك المدينة .

وسئل الجنيد : ما فريضة الصلاة ؟ قال : قطع العلائق ، وجمع الهمّ والحضور بين يدى الله .

وقال الحسن : ماذا يعزّ عليك من أمر دينك إذا هانت عليك صلاتك ! !

وقيل : أوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائه فقال : إذا دخلت الصلاة فهبْ لى من قلبك الخشوع ، ومن بدنك الخضوع ، ومن عينك الدموع ؛ فإنّى قريب .

وقال أبو الخير الأقطع[1] : (رأيت رسول الله ﷺ فى المنام ، فقلت : يا رسول الله أوصنى . فقال : يا أبا الخير ، عليك بالصلاة ؛ فإنّى استوصيت ربّى فأوصانى بالصلاة ،وقال لى : أن أقرب ما أكون منك وأنت تصلّى) .

---

(١) هو : عباد بن عبد الله التيناتى . قال المناوى : هو (التيناتى) نسبة إلى (تينات) قرية ببلاد المشرق . وأصله من المغرب وقدم من المشرق وصحب ابن الجلاد . ومات سنة ٣٤١هـ ودفن بمصر بقرب قبر ذى النون المصرى .

وقال ابن عباس ، رضى الله عنهما : ركعتان فى تفكير خيرٌ من قيام ليلة .

وقيل : إن محمد بن يوسف الفرغانى رأى حاتماً الأصمّ واقفًا يعظ النـاس فقال لـه : يا حاتم ، أراك تعظ الناس أفتحسن أن تصلّى ؟ قال : نعم . قال : كيف تصلّى ؟ قال : أقوم بالأمر وأمشى بالخشية وأدخل بالهيبة ، وأكبرّ بالعظمة ، وأقرأ بالـترتيل ، وأركـع بالخشوع ، وأسجد بالتواضع ، وأقعد للتشهد بالتمام ، وأسلّم على السنّة ، وأسلّمها إلى ربىّ ، وأحفظها أيام حياتى ، وأرجع باللوم على نفسـى ، وأخـاف أن لا تقبـل منـى ، وأرجو أن تقبل منّى وأنا بين الخوف والرجاء ، وأشكر من علّمنى ، وأعلّمها من سألنى ، وأحمد ربى إذا هدانى .

فقال محمد بن يوسف : مثلك يصلح أن يكون واعظًا .

وقوله تعالى : ﴿لاَ تَقْرَبُوا الصَّلاَةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى﴾[١] قيل : من حب الدنيا ، وقيل : من الاهتمام . وقال عليه الصلاة والسلام : (من صلّى ركعتين ولم يحدث نفسه فيـهما بشـىء من الدنيا غفر الله له ما تقدّم من ذنبه)[٢] .

وقال أيضًا : (إن الصلاة تمسكن وتواضع ، وتضّرع وتنادم ، وترفـع يديـدك وتقـول : اللهم .. اللهم فمن لا يفعل فهى خداج)[٣] أى ناقصة .

وقد ورد أن المؤمن إذا توضأ للصلاة تباعد عنه الشيطان فى أقطار الأرض ؛ خوفًا منه ؛ لأنه تأهّب للدخول على الملك ، فإذا كبّر حجب عنه إبليس . قيل : يضرب بينه وبينـه سرادق لا ينظر إليه ، وواجهه الجبار بوجهه ، فإذا قال : (الله أكبر) اطّلع الملـك فـى قلبه ، فإذا لم يكن فى قلبه أكبر مـن الله تعـالى يقـول : صدقـت ، الله فـى قلبـك كمـا تقول ، وتشعشع من قلبه نور يلحق بملكوت العرش ، ويكشف لـه بذلـك النـور ملكـوت السموات والأرض ، ويكتب له حشو ذلك النور حسنات .

إن الجاهل الغافل إذا قام إلى الصلاة احتوشته الشـياطين كمـا يحتـوش الذبـاب علـى نقطة العسل فإذا كبرّ اطّلع الله على قلبه ، فإذا كان شىء فى قلبـه أكـبر مـن الله تعـالى عنده يقول له : كذبت ، ليس الله تعالى أكبر فى قلبك كما تقول . فيثور من قلبه دخـان يلحق بعنان السماء ، فيكون حجابًا لقلبه عن الملكوت ، فيزداد ذلك الحجاب صلابة ،

---

(١) آية رقم ٤٣ من سورة النساء .

(٢) رواه النسائى .

(٣) رواه ابن ماجة .

ويلتقم الشيطان قلبه فلا يزال ينفخ فيه ، وينفث ، ويوسوس إليه ، ويزيّن ، حتى ينصرف من صلاته ، ولا يعقل ما كان فيها .

وفى الخبر : (لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بنى آدم لنظروا إلى ملكوت السماء) .

والقلوب الصافية التى كمل آدابها لكمال أدب قوالبها تصير سماوية تدخل بالتكبير فى السماء كما تدخل فى الصلاة ، والله تعالى ، حرس السماء من تصّرف الشياطين ، فالقلب السماوى لا سبيل إلى الشيطان إليه فتبقى هواجس نفسانية ، عند ذلك لا تنقطع بالتحصّن بالسماء كانقطاع تصّرف الشيطان والقلوب المرادة بالقرب ، تدرج بالتقريب ، وتعرج فى طبقات السموات ، وفى كل طبقة من أطباق السماء يتخلّف شىء من ظلمة النفس ، وبقدر ذلك يقلّ الهاجس إلى أن يتجاوز السموات ويقف أمام العرش ، فعند ذلك يذهب بالكلية هاجس النفس بساطع نور العرش ، وتندرج ظلمات النفس فى نور القلب اندراج الليل فى النهار ، وتتأدىّ حينئذ حقوق الآداب على وجه الصواب .

وما ذكرنا من أدب الصلاة يسيرٌ من كثيرٍ ، وشأن الصلاة أكبر من وصفنا وأكمل من ذكرنا .

وقد غلط أقوام وظنوا أن المقصود من الصلاة ذكر الله تعالى وإذا حصل الذكر فأىّ حاجة إلى الصلاة ؟

وسلكوا طرقًا من الضلال ، وركنوا إلى أباطيل الخيال ، ومحوا الرسوم والأحكام ، ورفضوا الحلال والحرام وقومٌ آخرون سلكوا فى ذلك طريقًا أدتهم إلى نقصان الحال حيث سلموا من الضلال ، لأنهم اعترفوا بالفرائض وأنكروا فضل النوافل ، واغتروا بيسير روح الحال وأهملوا فضل الأعمال ، ولم يعلموا أن الله فى كل هيئة من الهيئات وكل حركة من الحركات أسرارًا وحِكمًا لا توجد فى شىء من الأذكار ، فالأحوال والأعمال روح وجسمان ، وما دام العبد فى دار الدنيا إعراضه عن الأعمال عبدا للطغيان ، فالأعمال تزكو بالأحوال والأحوال تنمو بالأعمال .